الفصل السادس

الآداب والتقاليد

وكما تميز المجتمع المسلم في العقيدة والشعائر ، والأفكار والمشاعر ، والأخلاق والفضائل ، يتميز كذلك بآدابه وتقاليده الخاصة به ، المصبوغة بصبغته ، النابعة من تلك الأمور المذكورة : العقيدة وما يتبعها ، ويتفرع عنها .

إن لهذا المجتمع آدابه وتقاليده : في المأكل والمشرب ، والزينة والملبس ، والنوم واليقظة ، والسفر والإقامة ، والزمالة والعِشْرة ، والعمل والراحة ، والصداقة والصحبة ، والزواج والطلاق ، في العلاقة بين الرجل والمرأة ، وفي العلاقة بين الولد وأبيه ، وفي العلاقة بين القريب وقريبه ، وفي العلاقة بين الجار وجاره ، وفي العلاقة بين الكبير والصغير ، وفي العلاقة بين الغني والفقير ، وفي العلاقة بين البائع والمشتري ، وفي العلاقة بين الرئيس والمرءوس ، وفي العلاقة بين الخادم والمخدوم .

- **من تقاليد المجتمع المسلم :**

إن هذه التقاليد والآداب والعادات أنشأها الإسلام في المجتمع المسلم ، لتكون في خدمة عقيدته وشعائره ، ومفاهيمه ومشاعره ، وأخلاقه وفضائله .

فمن تقاليد المجتمع المسلم : أنه ينام مبكرًا ، ويستيقظ مبكرًا ، فيستمتع أفراده بالنوم الهادئ العميق ، في الليل الذي جعله الله لباسًا ، ويوفر صحة أبنائه وقوتهم التي يذبلها السهر الطويل ، ويوفر ملايين الكيلوات من الطاقة الكهربائية التي تستهلك في السهر لغير ضرورة ، ويتمتع الناس بعد ذلك بوقت البكور المبارك ونسيم الصباح المبكر ، وهذا التقليد الجميل المتميز إنما صنعته (صلاة الفجر) ووجوب الاستيقاظ لها ، وأدائها في وقتها قبل أن تطلع الشمس .

OBEIKAN.COM

ومن هنا نتبين أن تقاليد المجتمع المسلم ، لا انفصال بينها وبين مقوماته الأخرى .

ومن تقاليد المجتمع المسلم : أن الرجل لا يجوز له أن يخلو بامرأة أجنبية ، بدون حضور زوج ولا مَحْرَم لها ، كما لا يجوز لها أن تسافر وحدها ، بلا زوج ولا مَحْرَم[1] ، وأن المرأة المسلمة يجب عليها الاحتشام والتصون ، فلا يجوز لها أن تبدي من زينتها إلا ما ظهر منها كالوجه والكفين ، ويحرم عليها أن تتبرج تبرج الجاهلية ، وأن تظهر ذراعها أو ساقها أو نحرها أو شعرها ، أو غير ذلك مما يفعله نساء العصر تقليدًا للحضارة الجاهلية : حضارة الغرب .

إن هذا التقليد ليس عبثًا ولا تحكمًا ، ولكنه مبني على نظرة الإسلام إلى كل من الرجل والمرأة ، ونظرته إلى الأخلاق في المجتمع ، وقيمة العفاف والتصون والحياء ، باعتبارها فضائل إنسانية رفيعة ، واعتبار الزنى فاحشة وجريمة خطرة على الفرد وعلى الأسرة ، وعلى بناء المجتمع كله ، إذا شاعت وتطاير شررها .

فإن نتيجتها طغيان الشهوات ، وفساد الشباب ، وانتشار الخيانة ، والشك بين الأزواج والزوجات ، وشيوع الأمراض التناسلية ، وكثرة اللقطاء وأولاد الحرام ، واختلاط الأنساب ، وانحلال الروابط والأخلاق . وصدق الله : ﴿ **وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا** ﴾ (الإسراء: ٣٢) .

فإذا كان الزنى فاحشة وسبيلاً سيئًا ، لم يكن بد من إغلاق الطرق الموصلة إليه ، فجاءت آداب الإسلام وتقاليده في التصون والاحتشام ، ومنع التبرج والإغراء ، وسد الذريعة إلى الفتن ، ما ظهر منها وما بطن : ﴿ **قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا** ﴾

---

(١) هذا هو الأصل ، ويستثنى من ذلك ما إذا سافرت في رفقة مأمونة ، ولم يخَفْ أى خطر عليها ، ويدل لذلك : حديث الظعينة التي تسافر من الحيرة ـ بالعراق ـ حتى تطوف بالكعبة ، لا تخاف إلا الله ، وبه استدل ابن حزم على جواز سفر المرأة وحدها عند الأمن .

OBEIKAN.COM

﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ بُعُولَتِهِنَّ أَبْنَآءِ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ . . . . ﴾ الآية (النور: ٣٠-٣١) .

ومن تقاليد المجتمع المسلم : أن بين الولد وأبيه رابطة أبدية مقدسة ، لا تنفصم عراها ببلوغ الابن رشده ، أو باستقلاله الاقتصادي ، أو بزواجه كما هو عند الغربيين ، الذين يصبح الابن عندهم بعد أن يكبر ويتزوج كأنه شخص غريب عن أبويه ، لا يكاد يعرفهما إلا في المناسبات ، إن عرفهما ، بل إن الإسلام ليوسع دائرة الأسرة ، حتى تشمل الأقارب من الأصول والفروع والعصبة وكل ذي رحم محرم من الرجال والنساء ، فالأجداد والجدات والأحفاد والأسباط ، والأعمام والعمات ، والأخوال والخالات وأولادهم . . كل هؤلاء أرحام يجب أن تُوصل ، وقرابة يجب أن تُرعى ، ولها حقوق يجب أن تُؤدى ، من الزيارة والمودّة والإحسان ، إلى وجوب النفقة والرعاية بالمعروف : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (النساء: ١) ، ﴿ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ (الأنفال: ٧٥) ، ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ (الإسراء: ٢٦) .

ومن آداب المجتمع المسلم وتقاليده : أنه لا يأكل الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهِلَّ لغير الله به ، ولا يشرب الخمر والمسكرات ، ولا يقدم شيئًا من ذلك على موائده . وهو يأكل ويشرب باليمين ، ويبدأ طعامه باسم الله ، ويختمه بحمد الله ، ولا يأكل أو يشرب في إناء ذهب أو فضة .

ومن آداب المجتمع المسلم : إفشاء السلام ، وهو تحية المسلمين فيما بينهم ، وإلقاؤه سُنَّة ، ورده فرض كفاية ، وقد أغناهم الله به عن تحايا الجاهلية من فعل كالسجود والانحناء ، أو قول كـ(عِمْ صباحًا)، أو (عِمْ مساءً)، وقد وضع الرسول ﷺ لهذه التحية قواعد ضابطة ، حتى لا يتواكل الناس في البدء بها إذا تلاقوا . . فيسلِّم الصغير على الكبير ، والقليل على الكثير ، والمار على الجالس ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾ (النساء: ٨٦) .

ومن آدابه ما ذكره القرآن بقوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٢٧ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴾ (النور:٢٧-٢٨) .

ومن آداب المجتمع المسلم : الإحسان إلى الجار ، وإكرام الضيف ، وتشميت العاطس ، وعيادة المريض ، وتشييع جنازة الميت ، وتعزية المصاب ، إلى غير ذلك من الآداب والتقاليد ، التي تتفاوت في حكمها ما بين واجب مفروض ، ومُستحَب مندوب .

● من آثار التقاليد الإسلامية :

إن هذه الآداب والتقاليد الإسلامية تحقق في المجتمع المسلم جملة من المزايا والآثار الطيبة ، نذكر منها :

١- **التميُّز** : فهذه الآداب والتقاليد تجعل للمجتمع المسلم شخصية متميزة الملامح ، واضحة التقاسيم ، وتمسكه أن يذوب وينصهر في غيره من المجتمعات فيتقمص شخصيتها ، ويقتبس عاداتها ، وينقل تقاليدها ، دون تفرقة ولا تمييز بين ما يجوز وما لا يجوز ، وما يصلح وما لا يصلح ، وهذا ما تورط فيه أكثر الشعوب المسلمة اليوم ، إذ انسلخت من ذاتيتها ، واتبعت حضارة الغرب وأخذت تقاليده جملة ، بغير تمحيص . وهذا ما حذّر منه ونبّأ به الرسول الكريم ﷺ حين قال : « لتتبعن سنن مَن قبلكم شِبراً بشبر ، وذراعًا بذراع ، حتى لو دخلوا جُحْر ضب لدخلتموه! » . قالوا : اليهود والنصارى ، يا رسول الله؟ قال : « فمَن؟ »[1] .

٢- **الوحدة العملية** : إن هذه الآداب والتقاليد تنشئ بين المسلمين ـ وإن تناءت ديارهم ، واختلفت ألسنتهم ، وتباينت عروقهم ، وتفاوتت مراكزهم وطبقاتهم ـ

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٥٦) ، ومسلم في العلم (٢٦٦٩) ، عن أبي سعيد .

OBEIKAN.COM

وحدة عملية واقعية ، بجوار الوحدة العقدية والفكرية والشعورية ، التي أنشأها اتحاد العقيدة والشعائر ، والأفكار والمشاعر .

فحيثما نزلتَ بين قوم مسلمين في أي أرض كانت ، حيوك بتحية الإسلام (السلام) ، واستقبلوك بالإكرام والقِرَى ، تبعًا لأدب الإسلام في إكرام الضيف : « مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه »[1] . فإذا تناولتَ طعامك معهم ، وجدتهم يبدأون طعامهم باسم الله ، ويأكلون باليد اليمنى ، ويختمون بالحمد لله ، ولا يقدمون لك خنزيرًا ولا خمرًا .

فهناك قدر مشترك من التقاليد والعادات ، يُشعر المسلم أنّى ذهب أنه بين أهله وإخوانه وذويه ، لا يفترق عنهم ، إلا في جزئيات تفصيلية ، نتيجة لاختلاف البيئات والأحوال .

٣- **البساطة والاعتدال** : فإنّ تقاليد الإسلام وآدابه تقوم على مراعاة الفطرة ، واحترام البساطة واليُسر ، وتجنب التكلف والتعقيد ، والبعد عن الاختيال والإسراف .

ومن شأن هذه البساطة والقصد والاعتدال ، أن تيسر الأمور ، وتقلل التكاليف ، وتخفف من بعثرة الجهود والأوقات ، والأموال ، فيما لا يعود على المجتمع واقتصاده وأخلاقه ومُثُله إلا بالضرر والخسران .

إن تقاليد المجتمع المسلم في الملبس والتزين للمرأة المسلمة ، تنافي هذا التهالك المحموم على كل بِدْع ، وهذا السباق المسعور على أقرب الأزياء إلى الإثارة ، وأقدرها على الإغراء ، وتناقض هذا الإسراف المجنون ، في التجمل والتجميل ، من وصل الشعر (الباروكة) ونمص الحواجب ، ووشر الأسنان و(جراحات التجميل) وغير ذلك مما لعنه رسول الله ﷺ لما فيه من تغيير خلق الله . ولم يعد يكفي المرأة أن تقوم بتجميل نفسها ، فاحتاجت إلى مَن يجملها ، ولم يعد

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري في الأدب (٦٠١٨)، ومسلم في الإيمان (٤٧)، عن أبي هريرة .

OBEIKAN.COM

القائم بالتجميل امرأة تأتي إليها في بيتها ، كما كان يحدث في العصور السابقة أحيانًا . بل أصبحت المرأة هي التي تخرج من بيتها لتذهب إلى محل رجل أجنبي (كوافير) يقوم بتجميلها وتزيينها ويتقاضى على ذلك أفحش الأجور .

● **مهمة المجتمع المسلم مع الآداب والتقاليد :**

إن مهمة المجتمع المسلم هنا ـ كما هي مهمته دائمًا ـ أن يبث هذه الآداب ، ويربي عليها أبناءه وبناته ، وينشئ عليها تلاميذه وتلميذاته ، في كل مراحل التعليم ومستوياته وأنواعه ، من الحضانة إلى الجامعة ، ويحببها إلى الشعب بكل وسيلة من وسائل التوجيه والإعلام ، وبكل أسلوب من أساليب التأثير والبيان : بالمقالة والقصيدة ، والقصة والمسرحية ، والنشرة والكتاب ، والمجلة والصحيفة ، والنكتة والكاريكاتير ، بالكلمة المقروءة والكلمة المسموعة والصورة المشاهَدة . وأن تتعاون على ذلك كل المؤسسات : الدينية كالمسجد ، والفنية كالمسرح ، والتربوية كالمدرسة ، والإعلامية كالتلفاز ، ولا يجوز أن يبني جهاز في جانب ، وتهدم أجهزة أخرى في جوانب ، كما قال الشاعر :

متى يبلغ البنيان يومًا تمامه إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم؟

وقال آخر :

فلو ألف بانٍ خلفهم هادم كفى فكيف ببانٍ خلفه ألف هادم؟!

ولا سيما أن الهدم في عصرنا بالألغام لا بالمعاول . وهذا يصدق في الماديات والمعنويات جميعًا .

وواجب المجتمع المسلم في عصرنا أن ينقي آداب المجتمع وتقاليده مما دخل عليها من أمور غريبة عن طبيعته المتوازنة المعتدلة ، سواء في ذلك ما أدخلته عصور الانحطاط الفكري والتخلف الحضاري ، الذي أصاب العالَم الإسلامي لعدة قرون ، وما زحفت به علينا الحضارة الغربية الحديثة من بدع منكرة ، في الأزياء والأثاث ، والمآكل والمشارب والأعراس ، ومختلف المناسبات والعلاقات بين الرجال والنساء ، وغير ذلك .

ولهذا نجد المجتمع الإسلامي الآن يضم فريقين من الناس يعيشان على طرفي نقيض .

فإذا أخذنا موضوع الأسرة مثلاً . نجد هناك مَن لا يسمح لخاطب ابنته أن يراها مجرد رؤية ، مع مخالفة ذلك للأحاديث الصحيحة ، بل في بعض البلاد لا يرى الخاطب زوجته بعد أن يعقد عليها العقد الشرعي ، وإنما يراها وتراه ليلة الزفاف فقط!

وفي مقابل هؤلاء مَن يدع للمخطوبة الحبل على الغارب ، لتخرج مع خاطبها وحدهما ، متأبطًا ذراعها ، غاديَيْن أو رائحين ، إلى المتنزهات أو السينمات ، سحابة النهار أو زلفًا من الليل ، حتى يسبر غورها ، ويعرفها معرفة مخالطة ومعايشة .

وهناك من الأزواج مَن يعامل امرأته كأنها قطعة أثاث في البيت ، لا يستشيرها في أمر ، ولا يعترف لها بحق ، ولا يراعي لها شعورًا ، ويرى ذلك من الرجولة .

وعكس هذا مَن جعل زمامه في يد امرأته ، فلا شخصية له ، ولا أثر لقوَّامته على الأسرة ، بل تغدو الزوجة هي الآمرة الناهية ، المتصرفة في المال ، الموجهة لتربية الأولاد ، المتحكمة في علاقات الزوج ، حتى بأمه وأبيه وذوي قرابته .

وهناك في مجال الميراث : مَن يحرم البنات من ميراثهن الشرعي الذي كتبه الله لهن ، ليخص بذلك أبناءه الذكور ، كأنما يستدرك على الله تعالى في حكمه .

وعلى النقيض من ذلك مَن يريد أن يُسوِّي بين الابن والبنت ، خلافًا لما فرض الله عَزَّ وجَلَّ في كتابه ، ناسيًا أن الشرع فاوت بينهما في الأنصبة ، لأنه فاوت بينهما في الأعباء والتكاليف المالية .

والأمثلة على ذلك كثيرة . وحسبنا ما ذكرناه .

ثم على المجتمع أن يحمي هذه الآداب والتقاليد بعد ذلك بالقانون والتشريع ، فلا يترك الحبل على الغارب للذين يريدون أن يفسدوا آداب الأمة ، ويمحوا معالم شخصيتها ، ويدمروا تقاليدها ، التي تلقتها من وحي ربها ، وفرضها عليها شرعها .

OBEIKAN.COM

فإذا تهاون المجتمع في آدابه وتقاليده ، وأطلق العِنان للمخربين يفعلون ما يشاءون ، فقد تخلى عن رسالة المجتمع المسلم الحق .

ليس بمجتمع مسلم صادق الإسلام : ذلك الذي ينسلخ من تقاليده العريقة ، وينفلت من آدابه الأصيلة ، ليتقبل تقاليد دخيلة ، وآدابًا غريبة عنه ، فتذوب شخصيته ، وتُمحى ذاتيته ، ويصبح ذيلاً لغيره ، وقد جعله الله رأسًا .

فترى أبناءه يأكلون بالشمال ويشربون بالشمال ، ورجاله يتحلون بخواتم الذهب ، ونساءه يتشبهن بالكافرات في كشف الشعور ، وتعرية الصدور ، وإبداء البطون والظهور .

ليس بمجتمع مسلم ذلك الذي يختلي فيه الرجال بالنساء ، بلا زوج ولا مَحْرَم ، ولا رقيب ولا حسيب .

ليس بمجتمع مسلم ذلك الذي يختلط فيه الفتيان والفتيات ـ اختلاط تماس واحتكاك والتصاق ـ في المعاهد والجامعات ، والمعسكرات والرحلات ، ووسائل المواصلات .

ليس بمجتمع مسلم ذلك الذي تُترك فيه المؤسسات المشبوهة : الصحفية والسينمائية والإعلامية ، تخرب كيان الأمة ، وتسلِّط عليها ريحًا سَمومًا فيها عذاب أليم ، تدمر كل شيء بأمر سادتها من الصهاينة والمستعمرين والشيوعيين : بالمقالات المضللة ، والأخبار الزائفة ، والقصص الماجنة ، والصور الفاجرة ، والأغاني الخليعة ، والمسرحيات الداعرة ، و(الأفلام) الهابطة ، والمسلسلات المطعمة بالأباطيل .

إنما المجتمع المسلم حقًّا : الذي يحامي عن آدابه الأصيلة ، وتقاليده الثابتة ، كما يحامي عن أرضه أن تُحتل ، وعن حرماته أن تُنتهك ، وعن ثرواته أن تُنتهب ، وعن كرامته أن تُهان .

* * *

OBEIKAN.COM